الخطبة الرابعة من نهج البلاغة "دراسة تحليلية دلالية"

م.م.عقيل نزار حسين

وزارة التربية/ مديرية تربية البصرة/ إعدادية علي بن أبي طالب(عليه السلام)

journalofstudies2019@gmail.com

الملخص:

استعمل الإمام عليه السلام في خطبته المطروحة في دراسة البحث جملا ابتدائية أعرب فيها عن قوم عرفوا مقام قادتهم، وتسنّموا مراتب عليا في قيادة الأمة بهم (أهل البيت عليهم السلام) وبالنتيجة لم يهتدوا بقول وليّ أمرهم وخليفتهم ، فكانت دراسة هذه الخطبة لتحليل تلك الجمل التي تجانست بعضها بعضا، فشكّلت مفهوما كاملا بجمل مختلفة، ما إن قطعت إحداها حتى تناثر المعنى وقُطع وصْلُه فكانت الوحدة الموضوعية هي ما ربط تلك الجمل وليستِ الروابط اللغوية.

يهدف البحث إلى بيان التكامل اللغوي في كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام، وطبيعة تناوله للتراكيب اللغوية وتوظيفها بصورة جمالية إبداعية انقطع نظيره من الناطقين بلغة البلاغة، وتسليط الضوء على مكامن القوة في كلامه عليه السلام.

كلمات مفتاحية: (تحليل الخطاب دلاليا، شرح خطبة نهج البلاغة، الجملة الابتدائية، تحليل الجملة، دلالة تركيب الجملة بلاغة الجملة الابتدائية).

The fourth sermon of Nahj al-Balaghah "A semantic analytical study"

Aqeel Nizar Hussain

Ministry of Education / Directorate of Education of Basra / Ali bin Abi Talib Preparatory School (peace be upon him)

Abstract **:**

The Imam, peace be upon him, used in his sermon presented in the study of the research primary sentences in which he expressed about a people who knew the position of their leaders, and attained higher ranks in the leadership of the nation through them (the people of the House, peace be upon them). They formed a complete concept with different sentences, as soon as one of them was cut off, the meaning was dispersed and its connection was severed, so the objective unit was what linked those sentences and not the linguistic ties**.**

The research aims to demonstrate the linguistic complementarity in the words of the Commander of the Faithful Ali, peace be upon him, and the nature of his handling of linguistic structures and their use in an aesthetic and creative way, which was interrupted by those who speak the language of rhetoric, and to shed light on the strengths in his words, peace be upon him**.**

Key words: **(**semantic discourse analysis, explanation of Nahj al-Balaghah sermon, initial sentence, sentence analysis, sentence structure semantics, rhetoric of the primary sentence**).**

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين ...

القرآن إعجاز ، وفهمه وبيانه يختص به أهل البيان ومن حوى علمه ، وغاص في فهمه مَن نزل على قلبه ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، وقد استوعب مفاهيمه مَن بعده وصيّه أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان حقا عليه أن يسمى بسيد البلغاء ، بعد أن كان نتاج إرشاده ودعوته الناس إلى طريق الحق ما جُمع معظمه في كتاب سمّي بـ(نهج البلاغة) ، فأفصحت كلمات هذا النتاج البلاغي عن أعظم ما نطق به لسان بشر، فكان للبحث هذا نصيبٌ من تحليل واحدة من خطبه (عليه السلام) وهي الخطبة الرابعة، وفق علوم اللغة (النحو و الصرف والبلاغة والدلالة) بما توافر منها، مع بيان نقاط البلاغة الكبرى التي جرت على لسانه الشريف(عليه السلام)، ثم إنّ هذا البحث أنموذج بسيط يوضح آليات تحليل نص معين وفق ماتمّ ذكره ، وقد قُسّم على قسمين: الأول: إبراز نقاط قوة بلاغة الخطاب، والثاني: شرح الخطبة وبيانها انطلاقا من القسم الأول .

الخطبة الرابعة من نهج البلاغة

قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين علي بن أبي طالب عليه السلام :

(بِنَا اِهْتَدَيْتُمْ فِي اَلظَّلْمَاءِ وَ تَسَنَّمْتُمُ اَلْعَلْيَاءَ وَ بِنَا اِنْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ . وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ اَلْوَاعِيَةَ وَ كَيْفَ يُرَاعِي اَلنَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ اَلصَّيْحَةُ رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ اَلْخَفَقَانُ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ اَلْغَدْرِ وَ أَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ اَلْمُغْتَرِّينَ سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ اَلدِّينِ وَ بَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ اَلنِّيَّةِ أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ اَلْحَقِّ فِي جَوَادِّ اَلْمَضَلَّةِ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَ لاَ دَلِيلَ وَ تَحْتَفِرُونَ وَ لاَ تُمِيهُونَ اَلْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ اَلْعَجْمَاءَ ذَاتَ اَلْبَيَانِ . عَزَبَ رَأْيُ اِمْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي مَا شَكَكْتُ فِي اَلْحَقِّ مُذْ رَأَيْتُهُ لَمْ يُوجِسْ مُوسَى ع خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ اَلْجُهَّالِ وَ دُوَلِ اَلضُّلاَلِ . اَلْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ اَلْحَقِّ وَ اَلْبَاطِلِ مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ)[1] .

سند الخطبة :.

جاء في البحار ما ذكره القطب الرّاوندي : ((أخبرنا بهذه جماعة عن جعفر الدّوريستي عن أبيه محمّد بن العباس عن محمّد بن عليّ بن موسى عن محمّد بن عليّ الاسترابادي عن عليّ بن محمّد بن سيار عن أبيه عن الحسن العسكري عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام و هذا ما ظفرت بعد إلى تلك الخطبة التقطت هذه منها على ما ذكره الشّارح المعتزلي ، نعم رواها في كتاب الارشاد للمفيد (ره) بأدنى تغيير و اختلاف))[2].

مناسبة الخطبة :

بعد انتهاء معركة الجمل في البصرة – التي وقعت سنة (٣٦هـ)[3] فقد كان أصعب يوم في تاريخ المسلمين – قام أمير المؤمنين و خطب عليه السلام بهذه الخطبة ((بعد قتل طلحة و الزّبير كما في شرح البحراني و المعتزلي و زاد في الأخير مخاطبا بها لهما و لغيرهما من أمثالـهما))[4] ، إذ لم تكن الأولى

التي يتوجه الخطاب إلى موتى الخصم فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر بعد انتصارهم على قريش أنه قال: ((" يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة يا عمرو بن هشام " وهم جيف منتنة قد جرو الى القليب))[٥]، وكانت هذه الخطبة تضم تحت كلماتها خطابا للأحياء وكيف لاقى المعاندون و الناكثون العهد ، فلا يتبعن نهجهم أحد من بعد .

القسم الأول: الجوانب اللغوية في الخطبة

التقديم والتأخير، شملت الخطبة اغلب حالات تقديم شبه الجملة في مجملها فقد ابتدأ عليه السلام بحرف الباء المقدم في شبه الجملة (بنا) وهي الفضاء الذي تدور فيه الخطبة ، بعد تقديمها على الفعل ؛ إذ أراد عليه السلام أن يبين مكانتهم (أهل بيت النبوة) بخلافة الأمة[٦] ، وأن الناس اهتدوا برسول الله(صلى الله عليه وآله) ومن خلَفه من بعده بدلالة الباء التي جاءت هنا للاستعانة[٧] أو السببية[٨] ، وكلا المعنيين ممكن في دلالة سياق ما بعدها، وضمير (نا) محور ما تدور حوله سائر الجمل ، وهنا رسالة لشمول كل ما موجود بالخطابة سببه الضمير في شبه الجملة ، ويمكن أن نرى هذا الأسلوب في مكان آخر وهو القرآن ، فلكل سورة نجد بسملة اختصت بها وانطوت جميع ما تحتويه السورة من لفظ ومعنى عائد لها أو مبتدئ بها وقد تصدرتها شبه الجملة بسم ، وحقيقة الأمر هو أن نتعامل معها (البسملة) ، بوصفها جزءاً من كل شي[٩] . فضلا عن المعنى الممكن اعتماده في الباء وهو الملابسة[١٠] ، والمراد بها أنهم عليهم السلام في جميع الأحوال جزء من الرفعة والعلو المشار إليها .

كذلك الظرف على فعله (اليوم تواقفنا) ، وذلك إشارة إلى التأكيد على اليوم بذاته ولا يقصد الزمان المطلق كما ورد في كتاب الله حيث قال تعالى : (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا – المائدة :٣ ويقصد الزمن أو الوقت الذي يعيشونه، وهذا ينعكس على الزمان الذي أُنشدت فيه الخطبة بحيث نستطيع من خلالها توضيح ما دار في هذا اليوم الذي اقتضى ارتقاء المنبر وتوضيح الأمور التي حان بيان مبهمها . وكذلك (بنا اهتديه وبنا انفجرتم) وقد ذكرنا سبب ابتداء الخطبة بشبه الجملة بدءاً .

أما الفاعل في (سترني عنكم جلباب الذين)، فقد جاء تأخيره وتقديم شبه الجملة والمفعول وهنا في بُعد المسند عن المسند إليه إشارة إلى بعد الوصول للحقيقة بدلالة الجلباب وهو ما يخفي الكثير من الأشياء بعيدا عن الأنظار مما يتطلب وقتا لمعرفة المخفي خلفه أو يبعد النظر في التخيل والتصور من أجل الوصول إلى ذلك المخفي ، ونجد مثل هذا التصور في قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . المنافقون: ٤) فضلا عن موقفه (عليه السلام) فكان ينظر بعين البصيرة لا البصر كما قال تعالى (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ– آل عمران: ١٥).

وعند الانتقال إلى المفعول (أنتظر بكم عواقب الغدر) ، نراه عليه السلام يذكر العواقب بوصفها نهايات الأعمال؛ إذ جعل الإمام لفظتها في آخر الجملة لمطابقة اللفظ لمعناه بكل تفاصيله المعنوية والرتبية والتركيبية .

في حين يعطي تقديم المفعول على الفاعل (يراعي النبأةَ مَن) دلالة بالغة في تقديم المفعول لأهميته وقوَّته ومدى اهتمام الإمام به على الفاعل ، وهو ما جرى عليه كلام العرب إذ إنهم ((يقدمـون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم))[١١]، وقد أخرّه بسبب انحطاط المستوى الذي توصل إليه (مَن أصمّته الصيحةُ)، ولعل في الأخير دلالة على التحقير وعدم الاهتمام به ، وعليه نلاحظ تجلي الشِدّة والقوة في الأسلوب الخطابي ، وهو عينه ما نجده في تقديم المفعول به (الضمير المتصل) أيضا على الفاعل (الصيحة) في (أصمتّه الصيحةُ) ، تعطي دلالة التحقير بأنهم أُقرب إلى الصمم من الثبات[١٢].

وبالانتقال إلى دلالة نوع التركيب (الجملة) والذي ميّز هذه الخطبة ؛ فقد استعمل الإمام في خطبته هذه جملا ابتدائية، فما إن قرأتَ جملة إلا وظننتَ أنّك بدأت في خطبة جديدة يفترق فيها المعنى، فلا تستطيع ترك واحدة فيعروها الضعف والنقص .

كانت (الجمل الابتدائية) كل واحدة منها توضح معنى يختلف عن الآخر وكأنك تتنقل بين جمل شتى، وقد شملت خطبته تسع عشرة جملة ، منها ثلاث عشرة ابتدائية، وستا فقط معطوفات ، وغالبا ما تحتوي خطبه على الجمل الابتدائية ولكن ليس بهذا القدر . إن ما ميّز هذه الخطبة عن سابقاتها هو استعماله جمل الابتداء أكثر مِن غيرها[١٣] ؛ إذ أراد أن يرسل عن طريق خطابه أكثر قدر مما جال في داخله وما أراد إظهاره مِن كمٍّ كبير بين عصارة همٍّ وبيان حال وتوجيب أمر وإرشاد وتعنيف لخطأ ، واسترسال بتعريف السالكين سبيل ما أراد عليه السلام مع مراعاته للظرفين الزماني والمكاني ، أما الزماني فضيق الوقت و مقام الموقف لا يحتمل الإسهاب ؛ لذا أعطى عليه السلام إشارات لما أراد بيانه بإيجاز بليغ استطاع من خلاله أن يصل إلى مبتغاه ، وقد تطلب الموقف من الناحية الزمانية كونه نهاية حرب وشهداء وجرحى وتهيئة الأوضاع للاستراحة ومن ثم الرحيل .

وأما المكاني فكان في ساحة المعركة وسط أجواء لا تسمح بالاطناب فلا يستطيع البوح بتفاصيل في هذا المكان لو تكلم بها لأُعيب على طرحها .

الضمائر : كان الطابع البارز في الخطبة هو استعمال ضمير جمع المخاطبين بجميع حالاته (الرفع بواو الجماعة ، و نا المتكلمين ، وكذلك تاء الفاعل وميم الجماعة ، والنصب والجر بضمير كاف الخطاب وميم الجماعة) وعليه فإنَّ صفة الشمول أحاطت بصورة النص. فضلا عن ثبوت و إبراز شخصية المتكلم (انا) في جميع موارد الإعراب (الرفع باستعمال تاء الفاعل تارة والضمير المستتر تارةً اخرى ، والنصـب والجـر بذكر ياء المتكلم) ؛ إذ بينت أن الجميع في محط اهتمام المفرد و إنهم تابعون له من جهة مقام الخلافة التي خاطبت الرعية فضلا عن صفة جمع المذكر ؛ لأن مقتضى الحال في ساحة الحرب هو للرجال دون النساء .

أسلوب النفي : لو أمعنا النظر في استعماله عليه السلام لأسلوب النفي فقد أورد أداة النفي الجازمة (لم) الداخلة على الفعل المضارع ؛ فهي تؤثر معنويا بنفي وقلب دلالة الفعل الى زمن الماضي مع نفيه نفيا

مؤكدا أفاد الاستمرار[١٤] ، كذلك استعمل ما يشبه هذه الأداة من أدوات النفي الداخلة على الماضي وهي (ما) فتأثيرها المعنوي هو نفي الفعل في زمن الماضي البعيد[١٥] فهو يوضح ان الشك كان منذ اول لحظة وساوس القلب عنكم ، وهنا نجد مقاربة ومشابهة بين تركيبي النفي سواء بالفعل المضارع أو الماضي ، ومن ثم فإنّه لم يخرج عن السياق الدلالي لمراد الخطبة ، ولم يخرج عن مفهوم الحدث ونفيه في السابق . وأيضا استعمل اداة النفي (لا) بصورتيها الداخلة على الجملة الاسمية مرة والثانية على الفعل المضارع ، وهنا نجد أن استعمالها جاء متماثلا دون اختلاف فقد نفت الأولى الجنس وهنا النفي مؤكد بحيث جاءت عاملة لدخولها على النكرة ، وبعدها اثبت ذلك التأكيد في نفي (لا) للفعل المضارع فهي تنفي الحاضر والمستقبل بجملة (لا تميهون) وأيضا النافية للجنس فهي تنفي الحكم[١٦]

فمن النادر ان يقابل أديب بين (لا) النافية للجنس والنافية غير العاملة في موردين مختلفين مع دلالة موحدة بينهما في بناء المعنى داخل سياق جملتين مرتبطتين معا برابط العطف .

تنوع الجمل بين الثبوت والتجدد :

وردت ثلاثون جملة في الخطبة سبع وعشرون منها فعلية واثنتان اسمية و واحدة ناسخة ، فقد ذكر الجمل الفعلية ؛ لمناسبة الخطبة لمقتضى حال الموقف فقد أثبت عليه السلام تقلب المخاطب و عدم ثباته في جميع موارد ما ذُكر مع أنّ المطلوب منهم أنْ يقفوا موقفا ثابتا ولا يتقلبون في جميع تصرفاتهم ، فضلا عن عدم ثباتهم في اتخاذ قراراتهم . فمناسبة الجملة الفعلية التي تدل على الحدث[١٧] بشقيها الماضي والمضارع تعطي دلالة الإخبار دون الإنشاء ، ومن ثم لم يرد فعل أمر بينها جاءت متساوية تقريبا بين جملة الفعل المضارع وعددها إحدى عشرة جملة ، أما الماضي منها فكانت سبع عشرة ، اثنتان منها مبنية للمجهول . المضارعة منها تدل على مخاطبة الباقين وأنهم سوف يصيبهم ما أصاب الماضين منهم و قد شملهم بالجملة الماضية فكانت لخطاب الجمع الأحياء منهم ، ومن مات في تلك الحرب ، بمعنى أنهم على حدّ سواء في مواقفهم وبالنتيجة كان استعمال المضارع للتركيز على الموجود وأنكم سوف تواجهون ما واجهوا .

في حين نجد أن الجمل المبنية للمجهول كانت بصيغة الماضي ولكنها كانت بدلالة المستقبل فقد أفادت معنى ضمنيّاً وهو الدعاء[١٨] وجعلها مجهولة ؛ لأنها تدل على مسلمات لا يمكن أن تخفق أو تتغير وأنها كانت مشروطة بجمل مضارعة .

أما الجمل الإسمية فما دلت إلا على ثوابت[١٩] لا يشوبها تغيّر ولا تأثُّر بزمان ؛ فهي حقائق ثابتة .

وقد استند في دلالة الفعل الناسخ (مازلتُ) وقد أعطاها مرتبة الثبوت والاستمرار أيضا بمعنى أنه كان ولازال بحال واحدة ثابتة لم تبدل بمرور الزمن .

ومن ثم يمكننا القول بأن هذه الخطبة كانت ذات طابع انفعالي وحركي أراد عليه السلام أن يوظف الكثير من الأحداث والمتغيرات بوصف أقل ، ومنها نستطيع أن نحدد مدى تأثر نفس الإمام عليه السلام بعد هذه المعركة التي استنزفت الكثير من الأصحاب والأنصار من الفريقين ممن أضلتهم الضلائل وكان من

الصعب عليه[عليه السلام] أن يفقد ثلة كان الاسلام[٢٠] قد اعتمد عليهم في بادئ الأمر الا أن الفتن أوقعتهم في شباك الشيطان .

بلاغيا ، فقد وردت تراكيب بلاغية عدة وان كان بيان الخطبة وفصاحتها بلاغتها ولكنَّــه [عليه السلام] وظّفها توظيفا دقيقا في سياق الخطبة كالمجاز في لفظة (تسنمتم العلياء) والتسنم هو صعود سنام الجمل ، وأراد به الإمام أن يصف ارتقاء هؤلاء إلى المراتب العليا عن طريق الصعود إلى أعلاها[٢١] . و لأن السنام هو أعلى مكان مرتفع في جسد المطية فهنا استعارة لقمم المراتب العليا لا تعلوها منزلة ، يضاف إليه أن التسنم إشارة إلى مراتب الحياة الدنيا التي لا يعدو تشبيهها بوصف تعبير عن مخلوق غير عاقل ، دون الارتقاء إلى مستويات الرقي البشري على الصعيدين الذاتي والاجتماعي ..

أما لفظة (الصيحة) هنا كناية عن أصوات الضلال الصاخبة التي تعالى ضجيجها فلا يستطيع أحد أن يسمع معها أي صوت آخر إن كان مناصرا أو معارضا ، فيه صلاح أم لا ، ولم يصرح بمعنى تلك اللفظة إلا ما يدل عليها من استعمال دلالي بعيد[٢٢] فكانت إشارة لتعالي أصوات الضلال .

في حين نجد الاستعارة (ما أوجس في نفسه خيفة موسى ...) وهنا استعار[عليه السلام] حال موسى[عليه السلام] ، وما رأى من فتن السحر فقد كان عالما باكذوبتها ولكن أشفق على قومه من أن يصدّقوا ما رأت أعينهم ، وفي واقع الأمر أن خوف الإمام[عليه السلام] ليس على نفسه وإنما على المكلفين من المسلمين مما يرون من فتن أن يقعوا في الشبهات وبعدها الضلال ، فدلالة استعارة الموقف هنا طرحٌ يختلف عن المعروف ؛ إذ ترك لصاحب البيان أن يجد الربط بين موسى [عليه السلام] ومقام الخطاب وسبب ذكر هذه الحادثة في هذه الخطبة بالذات ، فقد أراد الإمام [عليه السلام] في هذا السياق معنى الحال لنفسه لا نقل معناها عن معنى آخر[٢٣] .

واذا انتقلنا الى الجملة بين الخبرية والانشائية ما لحظناه من احتواء الخطبة من جمل اسمية وفعلية دليل على خبرية الخطبة وأنه يخبر ما حدث وما يجري وما سوف يلقونه وهذا كله يشرح أمرا محدثا يتغير بمرور الزمن فقد ابتعد عن الجمل الانشائية الطلبية فلم يستعمل (فعل الأمر ، أو أسلوب النهي ، أو الاستفهام ، وغيرها من أساليب الطلب كالعرض والتحضيض ... الخ) سوى جملة (كيف يراعي النباة ...) وهنا خرج معناه من الاستفهام الى النفي او التعجب كما وردت الخطبة في كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد[٢٤] إذ انتهت بعلامة تعجب . وهذا مورد المجاز في الخطبة ، فقد ابتعد عن الاستفهام الحقيقي لعدم مواءمته سياق الخطبة مع المراد منها . أما غير الطلبية المدح والذم، فكان بأساليب غير مباشرة كالدعاء باستعمال الفعل الماضي المبني للمجهول كما مرَّ .

وما خرج لإفادة الدعاء ، ما ورد بصيغة فعل الماضي المبني للمجهول (وقر) لذم من لم يسمع الوعظ ، و (رُبط) لمدح من اتصف بحسن الإصغاء ورباطة القلب وثباته على الإيمان . فورود مثل هذا الدعاء أراد الإمام [عليه السلام] أن يميْز الذين كانوا معه ممن خالفه في أثناء توليه خلافة الأمة ، حتى لا يُفهم من خطبته أن الموجود كانوا جميعا من مخالفيه ، ومن ثم فهو ذم ومدح في الدعاء بالصيغة نفسها.

أما أسلوب التعجب بصيغة الاستفهام فقد استعمل عليه السلام اسم الاستفهام (كيف) ولكنه خرج الى معناه المجازي دون الحقيقي ومن ثم فقد أعطي دلالة تعجبية كانت أبلغَ ممّا لو استعمل احدى صيغ التعجب (ما أفعله) أو (أفعل به) فلم يقل ما أصمكم ولا أصمم بكم ، فهي لا تنسجم مع نفس الخطيب في الموقف الذي تطلب منه اختيار الشديد من اللفظ للتعنيف وجذب سمع المخاطبين وانتباههم يطرح السؤال دون استفهام ولكن للتعجب[٢٥]

دلالة التراكيب في الخطبة

(بنا اهديتم في الظلماء) دلالة الظلماء تشعر بأنّه يمكن استعمال الفعل سار أو مشى ، ولكن الإمام عليه السلام جاء بالفعل (هدي) لدلالة أحد اسماء الله الحسنى (الهادي) عليه واشتقاقه منه ، فهو مطابق للمعنى ، ولو جاء غير هذا الفعل في السياق لاختل المعنى حيث يقصد به ظلمة الفكر وعدم الرشاد ففعل الهداية تأتي مطابقة لمقتضى المعنى فالفعل اهتدى معنوي اكثر مما هو مادي فجاء مناسبا لمعنى الظلام الفكري وليس الظلام المادي .

(بنا انفجرتم عن السرار) السرار : الليلة الظلماء التي يختفي فيها القمر ، امّا ما يمكن ملاحظته هو عدم انسجام فعل الانفجار مع الظلام فيمكن اختيار واحدا من الأفعال بان ، ظهر ، أنار ، اتضح ... الخ من أفعال البيان والظهور ولكن هنا كناية عن شدة الظهور والبروز والاتضاح ففعل الانفجار يعطي دلالة السطوع ضوء الشمس وشدة إنارته عن طريق الانفجارات التي تسبب ذلك الضوء وصيغة الفعل (أفجرتم) برواية أخرى[٢٦] أي أفعلتم بدلا من (انفجرتم) كون الأخيرة على وزن انفعل وهي للمطاوعة مثل (انكسر) فهو لا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير ، واما أفعل فيجيء إلى صيرورة الشيء على حال . ومن ثم فهم انتقلوا من حال إلى حال أفضل وأكمل ، والحكمة من استعمال الفعل بصيغة انفعل تعطي لفته بلاغية عن حال المهتدين باختيارهم لا رغما عنهم فهم اختاروا ذلك والجزاء كان مخالفا لاختيارهم .

وكذا صيغة (أصمتّه) على وزن أفعل فهي تأتي لوجود الشيء على صفة مَن قَبِل ورَضِي ، فمعنى (أصمته الصيحة) وجدته أصم منذ البداية ، وليس هي من كانت سببا في صممه ، وهو مماثل لما ورد في قوله تعالى (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ – الجاثية: ٢٣) ، أي علم به الضلالة فأضلّ نهاية المطاف[٢٧].

لربما يمكننا القول : إنّ هذا يعود على مرجعياته عليه السلام في استعمال اللفظ سواء أكان مطابقا لمعناه كما موجود في القرآن الكريم للفظة (أصمته) أم اختار ما يناسب السياق لمعرفته بحقيقة معنى اللفظ كما في (أفجر) التي وردت (انفجر) فلو لم تكن له دراية بحقيقة (انفجر) ما كان أورد (أفجر) لمناسبة حال المخاطب .

وقر سمع ، الفعل وقر وقد استعمل أشد حالات الصم بهذا الفعل مع العلم أنه كان متاحا الاتيانُ بالفعل (صم) ، وهنا مشابهة لقوله تعالى عندما وصف الكفار في أربع آيات مستعملا مصدر الفعل (وقر ، وقرا) لبيان قوة الضلال وعدم استماع الحق[٢٨] ، مع إتيانه في نهاية الجملة (أصمتّه) .

(لم يفقه الواعية) ، الفعل وأداة الجزم (لم يفقه) ولم يقل لم يسمع لاعتبار أنّ الواعية ليس صوتا وإنما معرفة لموضوعة الوعظ والإرشاد لذا ففعل التفقه أدق من السمع كون الأخير عاما والتفقه خاصا .

(كيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة) ، جاء الفعل يراعي مخالفا في زمنه (المضارع) لسياق الأفعال المستعملة الماضية ، وإن كان الفعل يفقه مضارعا إلّا أنّه قُلبت دلالته إلى الماضي بدخول (لم) عليه ، وأيضا كان بإمكانه استعمال الفعل (يصغي ، أو ينتبه ، أو يستمع ، أو ينصت) بيدَ أنّ الرعاية ، دائما ما تأتي لدقائق الأمور وأصغرها وأنعمها وأشدها حساسية ومن ثم فمجيء (النبأة) التي بمعنى (الصوت الخفي) ملائمة لسياق الرعاية المطلوبة . وكذلك اعتماد الاسم الموصول (من) بدل (الذي) جاء لدلالة الاشتراك سواء ، المفرد أو المثنى أو الجمع بأنواعها المؤنثة أو المذكرة ، فقد استعمل صيغة العموم دون تخصيص جنس أو جماعة . وكذلك تقديم المفعول على الفاعل وهذا ما أوردنا الحديث عنه في التركيب . واتصال الاسم الموصول بصلته (جملة فعلية) معبرا بالفعل (أصمته) الذي جاء مطابقا بالمبنى والمعنى دون غيره فلا يمكن الإتيان بغيره في هذا السياق لعدم وجود بديل بدلالة أبلغ . والجدير بالذكر أنّه في سياق واحد في المعنى العام جاء مفصولا بجملتين ابتدائيتين ذكر تقابلات في المعنى (وقر ، أصم) و (يفقه ، يراعي) .

(ربط جنان) ، لم ياتِ بتركيب أخر مثل (ثبت قلب) ثبات القلب وهو كناية عن العزيمة والشجاعة ولكن لربما يتصعد النفس في بعض المواقف فكان ورود (الجنان) بمعنى الخوف والقلب ، والربط هنا التثبيت بقوة أي ثبت الانسان بكيانه بقوة شديدة دون ارتداد .

(لم يفارقه الخفقان) ، دلالة عن الحياة فلربما يموت الإنسان ، وهو حي في أحد المواقف الصعبة بحيث يبقى جسدا حيا دون محتوى ، فالإنسان بقوته وتحمله لكل ما يواجهه بالحياة أو دون موقف يشعر بوجوده كقول الإمام الشافعي (رحمه الله) – واقصد الشطر الثاني منــه – :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وقد عاش قوم وهم في الناس اموات

(أتوسمكم بحلية المغترين)، كان من الممكن أن يستبدلها بـ(أتفحص أو أتبين، أتخيل) ولكن أراد أن يعطي دلالة عن تجربته واستقرائه لمعطيات الأمور وفراسته ، أن ما سوف تلاقونه ثابت ولكني أراه قد توسمتم به فأصبح الأمر علامة فارقة تميزكم، وركبتم أمواج ما ستلاقون.

(بصّرني صدق النية) ، وهنا أمكنه عليه السلام أن يأتي بصيغة أخرى في التعدية (أبصرنيكم) ولكن ما للتضعيف من التأكيد أقوى وأشد من همزة التعدية ، فأعطى لصدق النية قوة إقحام التبصرة .

(أقف لكم على سنن الحق) ، وهنا دلالة القيام على الحكم ولم يستعمل الفعل (حكمت) كون القيام أشمل بالحكم والعمل معا ، أمّا حكمت فدلالته للحكم دون العمل .

(في جواد المضلة) ، وزن مفعلة صيغة مصدر ميمي من أضل ، فلم يقل (طريــق الضلال)؛ لأن الطريق يشير إلى السير أما الجادة فهي جانب الطريق فجاء التركيب مشتملا لمعنى النص أما لو ذكر طريقا لكان مختصا لواحدة من معاني الخطاب دون شموله .

حيث تلتقون ولا دليل، وتختفون ولا تميهون، وهنا دلالة على التيه و عدم بلوغ الحقيقة مع أنها كانت قريبة منهم ، فتميهون معناها تطلبون الماء دون جدوى .

(اليوم أنطق له العجماء ذات البيان) ، اليوم أنطق انعطافة جملية – ليست بغريبة عن إمام البلاغة – في دلالة المعنى باستعمال النطق للأمور الصامتة لا تعرف إلا من خلال الخوض بها كالدلائل والعبر[٢٩] . لكم العجماء (ويقصد الخطبة ذاتها) ، ومثلها قول الحلي بإيحاء الى جلب استنطاق الجامد:

سل الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا[٣٠]

أشار إلى الرماح وهي جامدة (وهو عند الشعراء كثير) والإمام[عليه السلام] ذهب إلى استنطاق الصامت أو الجامد في هذه الخطبة ، وهنا تكمن بلاغة شديدة للنص بأن مقتضى حال الخطابة وامكانية صاحبها بأن يجعل الأدلة هي ناطقة ، وهذا أسلوب لم يستعمله أحد إلا إذا كان صاحب بيان وفصاحة بأن يجعل الأدلة هي من يتكلم وليس أحد يشرحها .

(عزب رأي امريء) ، لم يقل ابتعد مع أنهما يحملان المعنى نفسه ، بيدَ أنّ الفعل عزب أكثر بعدا ومفارقة كما جاء في لسان العرب معنى عزب ((فعن رسول الله [صلى الله عليه وآله] كما تتراءون الكوكب العازب في الأفق هكذا جاء في رواية))[٣١] ، أي البعيد .

(تخلف عني) ، وهنا الجملة تعطي دلالتين إما واقعة صِفة من (امرىء) أو حال من (رأي أمري) وفي دلالة الوصفية أبلغ من الحال كون الإمام لم يشر إلى معلوم ومن ثم فهو يشير إلى مجهول لإفادة العموم دون تخصيص ، والباقي منوط بتحليل المتلقي الذي يلقي الإمام عليه السلام على عاتقه التوغل في الوصول إلى المراد من فضاء المطلب واسع الشمول في المجهول المشار إليه بجملة الحال (تخلّف) ، وسبب استبعاد الحال للمعلوم هو تضييق أفق دلالة الجملة ببيان حال الرأي ؛ لأن إطراء المعنى على مقام المخاطب العاقل ، دون التطرق إلى غير العاقل سواء بالحال أو غيره . و لمّا كان الرأي هو تابع للمرء فالإمام قصد المتبوع وهو المرئ دون التابع وهو الرأي .

(ما شككت في الحق مذ رأيته) ، وردت مذ ؛ لدلالتها على الاسمية والثبوت وكذلك لاقترانها بأول الشيء دون نهايته ، وليس منذ التي دلالتها حرفية تحصر الزمن بين بداية ونهاية فهي تشير بذكرها إلى نهاية الشيء بعد حدوثه أو وجوده ، أما الرؤية للحق فهنا الرؤية حقيقية جاءت بصيغة (أرى) فلو كانت قلبية لتعدت إلى مفعولين ، فنجد الفعل هنا وقد تعدى إلى مفعول واحد . فما رآه أمير المؤمنين من الحق فقد رآه دون تشكيك ، ولو كانت قلبية فهو لا يغني من الحق شيئا ، كما ورد في قوله : (لو كُشف [لي] الغطاء ما ازددتُ يقينا)[٣٢]

(لم يوجس موسى خيفة على نفسه أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال) ، وهذا بيان لمقام موسى[عليه السلام] فاختلاف السياق عن القرآن هنا يترك تساؤلا لماذا لم يقتبس[عليه السلام] الآية ؟ وعلّنا نجيب على دلالة الفرق بين المقامين أوضحناه سابقا ونبيّن الفرق بين التركيبين فقد جاء في القران قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى– طه : ٦٧) ، مشيراً إلى خوفٍ في نفس موسى [عليه السلام] على قومه ،

أمّا في سياق الخطاب فاختلاف المعنى أوضح المقصود من ذلك الخوف في النفس لا عليها ، إذ كان موسى عليه السلام مدركا لما يجري حوله أمّا خوفه هو على أتباعه من الوقوع في المكائد . جاء السياق القرآني بحرف الجر (في)، أمّا في سياق الخطبة جاء حرف الجر (على) مريدا بذلك نفسه أميرَ المؤمنين، والجملة الأخيرة تشرح الفرق في المعنى .

(اليوم تواقفنا على سبيل الحق والباطل) ، والمراد بالتواقف هنا الحرب وهذه إشارة إلى أن الفريق الثاني كان يرى نفسه على الحق بدلالة الفعل (تواقف) على وزن تفاعل .

(من وثق بماء لم يظمأ) ، مثلٌ عظيم وحكمة جبّارة لا يفصح عن مكنونها تعبير ، ولا تفسر محتواها سطورٌ ، كلمات تشرح ذاتها بذاتها وتعطي سبيلا للطالبين ، فالحكيم من يتعظ والجاهل يظمأ في صحراء الدنيا و عبودية سراب الشيطان . ولعل هذه الجملة يمكن بحثها منفصلة فهي تضم في طيات سبكها وحبكها بيانا مستقلا و دلالات كبيرة .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين.

الخاتمة

أبرز ما تمّ التوصل إليه من نتائج ، مع بعض التوصيات التي مكن طرحها :

١. كان استعمال أمير المؤمنين عليه السلام للجمل الابتدائية استعمالا قل نظيره في توظيفها في نص واحد لموضوع واحد .
٢. ترك أمير المؤمنين عليه السلام في سياق جمله الساحة التحليلية للسامع والقارئ على حد سواء باكتشاف المعنى وكيف يربط تلك المفاهيم المطروحة بالواقعة وتسلسلها التاريخي .
٣. لا يعتمد الخطاب على الربط بأدوات الربط اللغوية بين جمله لإيصال فكرة معينة ، بل يمكن للخطيب أو الكاتب أن يستعمل جملا ابتدائية داخل حدود الوحدة الموضوعية للخطاب المطروح .
٤. يحتاج من يستعمل هكذا أسلوب في خطابه إلى دراية عميقة باللغة التي ينطقها بجميع جوانبها التركيبية والدلالية .
٥. استيعابه عليه السلام الشمولي للغة العربية وللمنظومة اللغوية جعله يتحكم بها مدركا لجميع تفاصيلها و استعمال مواردها الممكنة سواء أكانت قريبة المنال منّا او بعيدة عن المتفقهين والعالمين بها ، وهذا ما لمسه الباحث من قدرته عليه السلام في التحكم بالجمل الابتدائية بصور مختلفة ؛ لينسج عليه السلام وحدة موضوعية عالية الدقة .

التوصيات:

١. على كل دارس أو باحث في اللغة العربية يجعل من نهج البلاغة موضوعا ولو لواحدة من بحوثه او دراساته او مقالاته .
٢. إعتماد نهج البلاغة مصدرا لشواهد مصادر اللغة بجميع فروعها ، فهو يغني كل تفرعات اللغة و حتى اللسانيات الحديثة.

الهوامش:

[١]. نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده : ٣٣

[٢]. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ، السيد الخوئي : ١ / ١

[٣]. الكامل في التاريخ ، ابن الاثير : ٢ / ٥٦٥

[٤]. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : ١ / ١

[٥]. شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد : ١/ ١٣٦

[٦]. ينظر ، معاني النحو ، د. فاضل السامرائي : ١/ ٩٢ ، وما بعدها من تقديم شبه الجملة بمعاني مختلفة

تواترت تلك المعاني ببقية التقديم في الخطبة .

[٧]. ينظر : المقتضب ، المبرد : ١/ ٣٩ .

[٨]. مغني اللبيب ، ابن هشام الانصاري : ١ / ١٠٤ .

[٩]. ينظر : تفسير سورة الفاتحة ، السيد جعفر مرتضى العاملي : ٣٠

[١٠]. ينظر ، معاني النحو : ٣٥

[١١] . الكتاب ، سيبويه : ١ / ١٤ وما بعدها

[١٢]. ينظر ، معاني النحو : ٢ / ٤٩

[١٣]. ينظر منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : ١ / ١١٩

[١٤]. ينظر ، معاني النحو : ٤ / ٨ و ١٦٢

[١٥]. ينظر ، المصدر نفسه: ٤ / ١٦٤ ، ١٦٥

[١٦]. ينظر ، المصدر نفسه : ١ / ٣٣٠ ومابعدها .

[١٧]. ينظر ، المصدر نفسه : ١ / ١٦

[١٨]. ينظر ، الدعاء المعاني والصيغ والانواع ، د محمد زوين : ٨٥

[١٩]. ينظر ، معاني النحو : ١ / ١٨

[٢٠]. ينظر : وقعة الجمل ،ضامن بن شدقم المدني : ١٥٠ وما بعدها

[٢١]. ينظر ، دلائل الاعجاز : ١٩٢

[٢٢]. ينظر ، دلائل الاعجاز (باب ترجيح الكناية) : ٥٣ ، ٥٤ .

[٢٣]. ينظر ، المصدر نفسه : ٢٧٨

[٢٤]. ينظر شرح ابن ابي الحديد : ١ / ١٤٣

[٢٥]. ينظر ، معاني النحو : ٤ / ٢٢٢

[٢٦]. بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ، الشّيخ محمّد تقي الشيخ التّستري : ١/ ١٥١

[٢٧]. شرح ابن أبي الحديد : ١ / ١٣٣ .

[٢٨]. كما ذكر ذلك الشيخ فارس حسون في تحقيقه لنهج البلاغة : ٦٢

[٢٩]. في خطبته عليه السلام ، هو ان نجعل للنص كيانا يفسر نفسه ويتحدث عن معناه مع بيان حال ناطقه وسامعه ، فقد يكون النص مظلوما باستعمال ألفاظه وإن استعمال النص لقصد أدنى من مستوى ألفاظه ، أو استعمال مقصود لغير ألفاظه ، أو أن هناك فهما لغير قصده أو هناك إضافة مقاصد لغير ما موضوع له في سياقه كالمبالغة في التفسير ، وغير ذلك ، فعندما نتيح للنص النطق والتكلم والحديث عن نفسه نجده يصور حقيقة معناه ، ولكن على اي معيار يعتمد استنطاقه، هذا ما يحتاج إلى بحث منفرد .

[٣٠]. ديوان صفي الدين الحلي ، صفي الدين الحلي : ٢٠

[٣١]. لسان العرب ، ابن منظور : ١ / ٥٩٧

[٣٢]. الروضة في فضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، لأبن شاذان القمي : ٢٣٥.

المصادر

١. القرآن الكريم .

٢. بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة , الشّيخ محمّد تقي الشيخ التّستري (١٣٢٠ هـ. ق)

٣. تفسير سورة الفاتحة ، السيد جعفر مرتضى العاملي ، ط١، المركز الاسلامي للدراسات ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ.

٤. الدعاء المعاني والصيغ والانواع ، د محمد زوين ، ستاره ط١.

٥. دلائل الاعجاز ، الجرجاني ، ت د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ١٤٢٢هـ

٦. ديوان صفي الدين الحلي ، صفي الدين الحلي ، كرم البستاني ، صادر ، بيروت

٧. الروضة في فضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، لأبن شاذان القمي، المعروف بإبن شاذان القمي، المتوفى بحدود سنة: ٦٠٠ هجرية، طبعة مكتبة الأمين ، قم / إيران .

٨. شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المدائني ، ت محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ط١ ، ١٩٩٨م .

٩. الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ت عمر عبد السلام ، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م .

١٠. الكتاب ، سيبويه ، ت عبد السلام هارون ، الخانجي، (د.ت).

١١. لسان العرب ، ابن منظور ، تذييل اليازجي وجماعة من اللغويين ، ط٣، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤هـ ،

١٢. معاني النحو ، د فاضل السامرائي ، ط٢، دار الفكر ، عمان ، ١٤٢٣هـ .

١٣.مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري ، ت مازن المبارك – حمد علي حمد الله ، ١٩٦٤ .

١٤.المقتضب ، المبرد ، ت محمد عضيمة ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ.

١٥.منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ، ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي ، ت علي عاشور ، ١٤٢٤هـ.

١٦.نهج البلاغة ، ت الشيخ فارس حسون ، طهران ، كتابفروشى إسلامية ، ١٩٦٦.

١٧.نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، ، ط١، دار الجوادين ، ٢٠١٠ م .

١٨.وقعة الجمل ،ضامن بن شدقم المدني ، ت تحسين الموسوي، ط١، ١٩٩٩م.